مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 7 العدد 2/ ديسمبر 2021
ص ص 225-236

الهويات المركزية والهويات الثانوية ـ الاختلاف والإدارة ـ في قصيدة الحجر الصغير لإيليا أبي ماضي

Central Identities Secondary Identities: Difference and Management, In Elia Abu Madi's Poem: "The Little Stone"

قدور بولعجين [1]*، حسان راشدي [2]
[1] المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة ، مخبر الجماليات في الدراسات الأدبية والنقدية، الجزائر، bouladjinekadour@gmail.com
[2] جامعة لمين دباغين سطيف2، مخبر الجماليات في الدراسات الأدبية والنقدية، الجزائر، sirabah19@gmail.com

الاستلام:2021/10/19 القبول: 2021/11/26 النشر:2021/12/31

ملخص:

تسعى هذه الدراسة : تمثيلات الهوية وتعددها في قصيدة "الحجر الصغير" لإيليا أبي ماضي لإماطة اللثام عن واحدة من أهم وأعقد قضايا العصر ممثلة في صراع الهويات وتعايشها وطرق تمثلها والفشل والنجاح في إدارتها، لأنه من الصعب على المجتمع أن يعيش من دونها لما تحمله من روابط إنسانية سامية وأهمية عميقة وتاريخا طويلا حافلا بالتناقضات والصراعات والنزاعات ذات الطابع المتحرك باستمرار، بالرغم من الأسس والمكونات الأصلية التي تُعتبر الثوابت الأساسية المحافظة على الهوية والذات الإنسانية.

وتمثلت المعالجة من خلال مجموعة من المنظورات تمثلت في: مفهوم الهوية وإشكاليات تمثيلها والهوية بين الحركة والسكون، وبين التعدد والإنغلاق، والفشل والنجاح في إدارة هذا التعدد.

الكلمات المفتاحية :الهوية ، التمثيل ، تعدد الهويات ، الشعر

Abstract:
This study: identity representations, their diversity and ways to be managed, is meant to immask one of the most complicated modern issues about the conflict and coexistence of identities and their representations and success and failure in management because it is impossible for a society to exist without it as it bears noble humanities and a long history full of mobile contradictions and conflicts though the original principles which are considered to be the fundamental constants of identity preservation.
This study tackles many perspectives: identity definition and it representations, mobility or stability, diversity or closure, success or failure in its administration.

Keywords: identity; identity representations; identity diversity; poetry.

*المؤلف المرسل

1. .مقدمة:

تعد الهوية بوابة الانتماء إلى ثقافة المجتمع، حيث تقوم بإكساب الفرد عناصر الثقافة والمهارات المطلوبة للتفاعل مع محيطه، والاهتمام بالهوية يُعدُّ نزعة ذاتية (نفسية اجتماعية) بحثا عن المكانة والمعنى، وهي نزعة تجعل الفرد يشعر بأنه جزء من جماعة يتقاطع ويشترك معها في قواسم مشتركة عديدة كالدين والعرق، الجغرافيا، المهنة والإيديولوجيات...، ولأن البشر يحتاج إلى من يشبهونه في الدين واللغة أو يشبهونه في اللون للإحساس بالأمان باعتبار أن الإنسان كائن مدني وكائن اجتماعي،حيث يترتب عن هذا الانتماء إلى الجماعة سلوك وولاء، وللهوية بعد ثقافي يسعى الفرد أو الجماعة من خلالها إلى التميز عن جماعات أخرى، لأن الهوية تبدأ مع التمييز ورصد الاختلاف بين الأفراد والجماعات، وتبرز الهوية حتى في المجتمعات المغلقة المقسمة هرميًا، وهذا الوعي بالتمييز هو العامل الرئيسي لتكوين تصور عن الذات ثم عن الآخر.

ترسَّم الهوية بحسب مقتضيات الواقع (الأغلبية مسلمة مثلا)، ولا يمكننا معاندة الواقع وإعادة إزاحته، فهنا أنت تأتي بصورة مشوهة والصورة المشوهة تأتي بارتداداتها، قد لا تكون هذه الارتدادات آنية عند ما يكون هناك استئثار بفرض هوية على شعب أو أقلية فرضًا.

الهوية ليست شيئا جامدا ونحن لا نتحدث عن شيء لا يتغير. نحن نتحدث عن شيء عابر للتاريخ؛ لأن الهوية تُبنى ويعاد بناؤها من خلال عوامل داخلية داخل المجتمع ومن خلال عوامل خارجة عن المجتمع، لذلك فالهوية دائما مقترنة بالهوية العالمية، وهي تقترن بالذاكرة العالمية، لأن هناك من يبالغ في حماية الهوية ويعتبر التنوع تهديدا.

لكن اليوم هل نعيش عصر عودة الهويات أم عصر أزمة الهويات؟ هل الهوية هي عامل من عوامل التقدم والتفاعل مع العالم أم هي عنصر للانكفاء والعودة نحو الداخل؟ أم التعدد في الهويات معطى إيجابي لضمان الثراء والغنى أم الانغلاق الهوياتي هو السبيل لصد الثقافات الوافدة؟ هل الهوية معطى ثابت أم هي بناء دينامي مستمر؟

2.مفهوم الهوية:

فالهوية من الناحية اللغوية "تعني ماهية الشيء أو الشخص الذي نميزه عن غيره"[1] أي أن الهوية مشتقة لغويا من الضمير المنفصل "هو" الذي يدل على ذات الشيء أو الشخص المستقلة عن ذوات الآخرين، ويرى أمين معلوف أن الهوية من المفاهيم المتشكلة "من جمهرة من العناصر التي لا تقتصر على ما هو مدون في السجلات الرسمية فقط - بالنسبة للغالبية العظمى من الناس- بل للانتماء إلى تقليد ديني أو مجموعة إثنية أو لغوية أو إلى مهنة أو مؤسسة و وسط اجتماعي ما، و كذلك إلى مقتضيات أخرى يفترض أنها غير محدودة"[2]، أي أن الهوية على صلة بالذات و التراث الاجتماعي، و الجغرافيا، وهي ترتبط بالأفراد كما هي ترتبط بالمجتمعات، وتُرتّب علاقتها بمحيطها بغرض تحقيق الاستقرار.

والهوية هي أكثر المفاهيم بداهة وأكثرها التصاقا بالوجدان والفطرة والغريزة، وفي الوقت نفسه من أكثر المفاهيم استعصاء على التعريف، ويعرف "صاموئيل - ب- هنتكتون" "الهوية أنها إحساس فرد أو جماعة بالذات، إنها نتيجة وعي الذات، بأنني أو نحن نمتلك خصائص مميزة ككينونة تميزني عنك وتميزنا عنهم. فالطفل الجديد قد يمتلك عناصر هوية ما عند ولادته في كل حال لا تصبح جزءا من هويته حتى يعيها الطفل ويعرَّف بها نفسه"[3]. يعني أن الهوية هي صفات مشتركة بين مجموعة من البشر وتؤسس لمجموعة من المشاركة الوجدانية بينهم، أي نوع من القرابة الوجدانية اللاشعورية التي تجعل الإنسان يحس بآلام وآمال هؤلاء أكثر من غيرهم من البشر وحاجة الهوية لأنهم بحاجة إلى ملاذات آمنة، وهو

يحتاج إلى من يشهونه في الدين أو في اللغة أو يشهونه في اللون للإحساس بالأمان باعتبار أن الإنسان كائن مدني واجتماعي.

وقد شكل مفهوم الهوية منذ سنين وحتى اليوم إشكالية مؤرقة غير قابلة للتجاوز في مختلف الفضاءات الثقافية والحضارية ويبقى سؤال أزمة الهوية هو أحد الأسئلة الأكثر إلحاحًا وحضورًا في عصرنا الراهن الذي نعيش فيه على وقع الإكراه والتنميط للعديد من البنى الثقافية داخل مختلف المجتمعات، وذلك في ظل اكتساح تيارات العولمة لكل المجالات الإنسانية. هذا المفهوم الإشكالي الذي أصبح يحتمل كل الأسئلة ولكن تضيق فيه الأجوبة.وقد يجر هذا المفهوم وراءه صراعات سياسية وإيديولوجية يتحول في أحيان كثيرة إلى سلاح قاتل يقود إلى العنف والتعصب والانغلاق.

3. **الهوية وإشكالية التمثيل:**

في معظم الأحيان تأخذ الهوية بعدًا ثقافيا، أو هي في الأساس ذات مضمون ثقافي، ويتكون هذا البعد عندما يشعر الفرد بأنه يتميز عن الآخرين، وسعي الجماعة لتأكيد ما يميزها عن الجماعات الأخرى. ويعد تمثيل الآخر عملية معقدة خاصة عندما نريد إنتاج معرفة عنه، هذه المعرفة عادة ما تكون مصطبغة بتفضيلات وتحيزات عن الآخر متكئة على خلفية نزاعات قائمة أو مرتقبة، والصواب أن تفضي نزعة الفرد إلى الإحساس والوعي بأنه جزء من جماعة أوسع منه يتقاطع معها في العديد من القواسم المشتركة " التمثيل هو عملية تغلغل والتحام يكتسب الأفراد والجماعات من خلالها اتجاهات وعواطف وأفكار أفراد آخرين، بحيث تستوعبهم الثقافة العامة نتيجة المشاركة في الخبرة والتاريخ "[4] أي لا يمكن اعتبار أو تصوير هوية الفرد خارج اعتبارات الآخر والغيرية، والفرد المقصود هنا هو ذلك المأخوذ في إطار نسيج من العلاقات مع الغير.

إن عملية تصوير الذات والآخر تخضع في معظم الأحيان إلى فرضية مواقع القوة وتبدلاتها، وقد تتغير صورتنا وصورة الآخر إذا انتقلنا من محور قوة إلى محور آخر و"التمثيل هو الذي يعطي للجماعة صورة عن نفسها وعن الآخر"[5]، ويأخذ الأمر شكلا من التعقيد عندما يصبح تحديد هوية الآخر صبغة مؤسساتية ذات صبغة سياسية ديدنها الهيمنة. مما يؤدي إلى الاختزال والتعميم وإلى التمثيلات الزائفة، واتخاذ مواقف خاطئة عن الآخر، أي يتم صياغتها بالشكل الذي يتسق مع افتراضات وأحكام مسبقة ويزداد الأمر فظاعة عندما يتبنى هذا الموقف أناس يتمتعون بمكانة معنوية ورمزية، أو هم في مراكز الحكم والسلطة.

لم يعد تمثيل الآخر صناعة فردية يخضع لأمزجة وأهواء الفرد، بل صناعة مؤسسات ونخب تحركها مصالح إستراتيجية سواء كانت داخلية أو خارجية. فتشكيل الآخر وتنميطه في صورة ثابتة ناتج عن جهل به أو بدافع مغرض ،أي تصوير الآخر عادة ما يكون منطلقا من التمركز على الذات ونظرة مسبقة وصارمة عنه مشفوعة بنظرة فيها نوعا من الريبة والخوف والشعور بالتهديد.

4. **الهويات بين الحركة والثبات:**

الهوية ليست عملية مغلقة أو إرثا جامدا لا يتغير أبداً، إنما هي إبداع مستمر تغذيها التنوعات القائمة. كما تقبل الهوية "الإسهامات الآتية من الخارج باستيعابها وتحويلها عند الاقتضاء، وهي تنأى عن أن تكون صورة من صور الانطواء على مكتسب ولا تقبل أن تغلق على نفسها"[6]، ومن المعلوم أن الهوية الشخصية تخضع لتحولات مستجدة في الحياة مزدوجة حينا ومتعددة أحيانا أخرى تتراوح بين التقليد أحيانا وبين الإبداع حينا آخر مما يمنحها القدرة على التواصل والالتقاء بالأغيار في العالم.

الهوية هي سياق وعملية متواصلة وهي ليست جامدة وساكنة أو فاقدة للحركة، ولا هي متوارثة " كما أنها ليست مبنية بشكل خطي وفق منطق اجتماعي محدد مسبقا"[7].

والشاعر الفيلسوف إيليا أبو ماضي في قصيدته " الحجر الصغير" يقول في مطلع القصيدة:

سمع الليل ذو النجوم أنينًا
وهو يغشى المدينة البيضاء
فانحنى فوقها كمسترق الهمس
يطيل السكوت والإصغاء
فرأى أهلها نياما كأهل الكـ
ـهف لا جلبة ولا ضوضاء
ورأى السدَّ خلفها محكم البنيان
والماء يشبه الصحراء
كأن الأنين من حجر في السد
يشكو المقادر العمياء

فهو يرى من خلال " السد" المحكم البنيان المتراص في أحجاره وبنائه كيف أن الهويات الساكنة والثابتة تسبب المتاعب للحجر الصغير. ما يجعله يشكو الأقدار التي وضعته في هذا المكان. فابتلاع الهويات الرئيسية (السد) للهويات الثانوية (الحجر الصغير) ومحاولة تقويضها كثيرا ما يواجه مقاومة وتدمرًا من هذه الأخيرة لأنه يقلل من شأن قدرات هذه الفئة في تحمل مسؤولياتها اتجاه نفسها واتجاه المجتمع؛ وفي هذا الإطار يعتقد أمين معلوف في كتابه "الهويات القاتلة" "أن الهوية مفهوم معقد، فهي ليست معطى ثابتا، بل تتشكل وتتحول باستمرار، والهوية ليست ثابتة بل هي تتحول بمرور الوقت وتحدث في السلوك البشري تغييرات عميقة"[8] فالمجتمع العربي كان عربيًّا ثم جاء ما يسمى بالدولة الحديثة فأصبحت هويته تنعت "عقاريا" كأن نقول "الدولة السورية مثلا"، ويقول "ستوارت هول":"نحن دوما في طريقنا إليها (إلى هويتنا) فالهوية دوما في طور التشكل الدائم، ولا تنتهي أبدًا فهي دائما في تطور وتغيير، إن هذا يجعلنا واعين بأن الهويات لا تكتمل"[9]. والتشكل والبناء الدائم للهوية يقوم بتغيير مضامين وقيم ومبادئ الجانب الثابت دون أن يمس بإطاره العام، فعندما وفدت "البوذية" إلى اليابان لم تتحول هذه الأخيرة إلى صين مشوهة فديانة "الشنتو" عملت على استيعاب البوذية لتجعل منها ديانة يابانية ذات خصائص قومية وثقافية اكتسبت المعالم القومية للبلاد. وبالطريقة نفسها استوعبت اليابان الثقافة والتقنية المعاصرة من دول الغرب. حيث هضمتها وأعطتها النكهة اليابانية، ويتفق معظم الباحثين على أن الهوية تتضمن عنصر التغيير حتى لو لم يتفق هؤلاء على حجم هذا التغيير. ولكن هناك مبادئ وثوابت لا يمكن كذلك القطع الوجودي معها. لأن هذه الثوابت هي التي تميز وتحدد هوية الفرد، والعربي اليوم ليس هو العربي قبل ألف عام ولكنه يبقى عربيا.

وخلاصة القول أن الهوية هي ممارسة وسلوك قبل أن تكون تصورا ذهنيا وهي تتكون وتثرى من خلال الممارسة.

5.الهوية بين موضعي التنازع و الاندماج: عندما يشعر الفرد أنه يقع أو يعيش في خانة الطارئ والغريب من المكان تشوب علاقته مع الآخر، خاصة عندما يكون هناك نزاع بين الأغلبية والأقليات الإثنية والعرقية هذه الثنائيات موضع التنازع تخلق حالة من الإنقسامية والتشظي في البنية الهوياتية للمجتمع، خاصة على مستوى اللغة مثلا أو على مستوى العرق أو الإنتماءات المحلية الفئوية أو المناطقية الضيقة، يذهب عبد الكريم غلاب إلى أن "المواطن هو تلك المرحلة التي تصبح فيها المواطنة إنسانية أي تتحول إلى تلك العلاقة الإجتماعية بين فردين مواطنين أو أكثر يتفاعلون حول الوطن أو يقتسمون جملة الانتماءات والحقوق والواجبات وحيث لفظ المواطن يحمل دلالة أقوى من لفظ الشعب أو الأمة، لاعتباره صانع القانون والطرف المطالب باختيار نظام الحكم، والتي تمثل أول مظاهر المواطنة"[10]. إن الهوية لا تدرك إلا في وجود آخر مختلف، فالآخر المختلف جزء من هويتي كما

وضح ذلك بول ريكور، و وراء الخصوصيات والإختلافات تكمن الوحدة، فالتنوع لا يلغي التواصل في أفق إنساني عابر للخصوصيات، والعلاقة المضطربة بين المكون المهيمن والمنضوي وبين المتون والحواشي،وأيضا المركزية الثقافية المسببة للعمى والغرور يؤدي إلى تكوين النزوع المضاد ويكرس الصراع.

لِفضِّ التنازع والتقليل من مساحة الإشتباك يجعلنا نبحث عن هوية مهجَّنة، وفكر الهجنة هو تجاوز للإنغلاق الذي ينهض عليه الفكر الهووي، حيث في الحيز المتاخم يحدث التعايش الهووي ويؤسس لهوية تقع على التنوع ويكون مانعا للتشظي والإنقسام والتنازع الذي عبر عنه إيليا أبو ماضي:

حجر أغبر أنا وحقيرُ
لا جمالاً،لا حكمةً،لا مُضاءَ
فلأغادر هذا الوجود وأمضي
بسلام إني كرهت البقاء

فالهوية هي بناء من نقاط التشابه والخلاف يجد كل فرد في هذا البناء فضاء للتعايش والتسامح، والقصيدة خلقت جوا حواريا مستمرا من خلال إظهار الاحترام الواضح وقبول الانتماءات المتعددة وخلق التعايشات والتوافقات التي تصالح بين المؤتلف والمختلف من الأفكار والإتجاهات والتصورات، فالهوية المهجَّنة عبارة عن إمكانية للتعايش والتجانس بين المكونات المختلفة، فمن الممكن أن تنهض الثقافات وتنمو الهويات حينما لا تكون هناك هيمنة لثقافة على أخرى ولهوية على أخرى ولا استغلال لواحد على الآخر.

6.الهوية بين الانتماء والإلحاق:

يعد الانتماء مجموعة من الأفكار والقيم والأعراف و التقاليد التي ترسخ في أعماق الفرد فيعيش بها وتعيش به، وإشكالية الهوية و الانتماء من ضمن القضايا الأكثر تداولا وجدالا، والتي يتجدد حولها النقاش دائما وفيها يعاد طرح الأسئلة القديمة الجديدة حول الهوية والانتماء، هل نحن عرب أم مسلمون؟ هل نحن عرب أم أمازيغ؟ هل ولاؤنا للقبيلة أم للدولة؟ هل نحن أبناء الدين أم أبناء الطائفة؟ حيث "يشكل الانتماء جذر الهوية الاجتماعية وعصب الكينونة الاجتماعية، فالانتماء هو إجابة عن سؤال الهوية في صيغة من نحن؟ والانتماء أيضا هو صورة الوضعية التي يأخذها الإنسان إزاء جماعة أو عقيدة"[11]، لكن نسمع ترددًا في الإجابة عن سؤال الهوية أو محاولة ترحيل الإجابة إلى أماكن أخرى بعيدة عن الأطر الجامعة كالولاء الثقافي ومعطيات الواقع الاجتماعي سيؤول إلى التفكك والتشظي والجفاء بين الفرد و جماعته لكنه قد ينتمي فرد إلى جماعة لكنه لا يشعر بالولاء لها لأن الولاء "حالة دمج بين الذات الفردية في ذات أوسع منها وأشمل ليصبح الفرد بهذا الدمج جزءا من أسرة أو من جماعة أو من أمة أو من الإنسانية جمعاء"[12] وعند فقدان الإحساس بالولاء ثم الإحساس بالانتماء كما يقول إيليا أبي ماضي على لسان الحجر الصغير في بنية السد الكبير بعد أن فقد شعوره بالانتماء:

لا رخام أنا فأنحت تمثالا،
ولا صخرة تكون بناء
لست أرضا فأرشف الماء
أو ماء فأروي الحدائق الغناء
حجر أغبر أنا وحقير
لا جمالا، لا حكمة، لا مضاء

وبفقد الشعور بالانتماء والثقة والأمن والاستقرار نتيجة لتضارب الهوية المشتركة والهوية الفردية الذي يفقد التلاحم الوجودي بين مختلف التكوينات الاجتماعية الصغرى في ظل البناء الكبير، فالإنسان العربي اليوم محكوم بعدد من الانتماءات التي قد تتعارض أحيانا وتتناسق أحيانا أخرى وتصل إلى حد الصراع بين الهوية والانتماء لأن الدولة بقيت تستمد نسق

وجودها من التكوينات الصغرى القائمة في المجتمع وذلك على حساب الهويات الرئيسية الجامعة. "كما عملت الدولة القطرية في الوطن العربي و بصورة مستمرة في الخفاء حينا وفي العلن أحيانا أخرى على إحياء مختلف الولايات الطائفية والعشائرية في المجتمع بدلا من العمل على تغييبها واجتثاث أسباب وجودها"[13] حيث دأبت مختلف الأجيال وعبر مراحل متعاقبة على هذا النمط من التكوين النفسي والعقلي و صار منطلقا لكل الممارسات الخطرة التي جعلت من الانتماءات الضيقة (العشائرية والطائفية) متكآت مشروعة لأي عمل سياسي أو حركة اجتماعية، ومن هذا المنطلق أصبحت "الحياة الاجتماعية العربية متشبعة بقضايا التمييز العنصري واستبداد الأقوياء واضطهاد الأقليات العرقية، وخرق المبادئ الإنسانية في المجتمع"[14] فلا يحق أن نضع هنا هوية مقابل هوية أخرى بدعوى أن هذه الهوية محتواة في الأخرى وأن هذه رئيسية والأخرى فرعية، وأي تنازع في هذا الإتجاه هو تنازع ضار ومفتعل ومضمر ويفضي إلى فرض الضعف والتبعية. "وأن تعدد الانتماء و تناقضاته يؤدي إلى الإنشطار في الهوية الإجتماعية وإلى حالة من التمزق الوجداني الداخلي عند الإنسان الذي تتخاطفه وفي الآن الواحد مشاعر انتماء اجتماعية متعارضة ومتنافرة في مختلف المستويات والاتجاهات"[15]، ما يجعل الإنسان والجماعة التي ينتمي إليها أحيانا يفتشان في الالتحاق بهويات خارج أسوار الجغرافيا التي ينتمي إليها نتيجة التناقض الشديد وعدم القدرة على إدارة التعدد والإختلاف الهوياتي، في الوقت الذي يكون فيه المجتمع متعددا في انتماءاته يملك هوية تمنح أفراده مشاعر الأمن والطمأنينة والإستقرار، تمنحه الإندماج وعدم التضارب بين الهوية المشتركة والهوية الفردية.

7. التعدد والإنغلاق الهوياتي:

ترتكز المطالب الإثنية الخاصة بالهوية على حمل الدولة والمجتمع ككل على الاعتراف بالقيم الرمزية المتعلقة بالجانب المعنوي والأخلاقي للجماعة، واعتبارها جزءا لا يتجزأ من المكونات العامة للدولة.

ولأنه كلما زاد اتساق وانسجام قيم وهوية الجماعة الاثنية بعد الهوية العامة للمجتمع كلما زاد اندماجها فيه. وكلما زاد تباين قيمها وهويتها عن قيم و هوية المجتمع زاد ميل الجماعات الاثنية للخروج والتمرد عليه: فمثلا يعتبر عامل اللغة المحرك الأساسي للمطالب الإثنية المتعلقة بالهوية وعليه" يشكل الاعتراف بلغة الجماعة لغة رسمية في الدولة مؤشرا هاما على مكانة الجماعة و موقعها داخل الدولة وأن لها شرعية أكبر وموقع أكثر أهمية من مواقع الجماعات الأخرى داخل المجتمع"[16] فالتعدد اللغوي لا يعد تهديدا لكيان دولة وإنما يعتبر غنى وتنوع كما يعتبر الدين أهم المتغيرات التي ترتكز عليها الجماعات الاثنية في تفعيل وأداء شعائرها الدينية داخل الدولة ونتيجة الحجر و المنع الذي تمارسه الأغلبية ضد الأقليات وحرمان هذه الفئة من ممارستها للحرية الدينية ينشأ عندها الرغبة في إقامة كيان مستقل ومعبر عن الهوية الخاصة بالجماعة الاثنية أو الرغبة في التخلص من هيمنة جماعة معينة وهذا ما يشكل تهديدا فعليا لبقاء الدولة.

ما أراد أن يعبر عنه إيليا أبو ماضي في أن التفريط في أي مكون من مكونات هذه الأمة سيؤدي إلى الانهيار، لأن التفريط في الحجر الصغير يؤدي إلى انهيار الحجر الكبير وهذا بسبب الانغلاق الهوياتي الذي مورس على الحجر الصغير (الفرد) في بناء السد، يقول الشاعر:

أي شأن يقول في الكون شأني
لست شيئا فيه ولست هباء
لا رخام أنا فأنحت تمثالا
ولا صخرة تكون بناء

لســت أرضـا فأرشـف المـاء
أو ماء فأروي الحدائق الغناء

فتضخيم الهوية إلى حدِّ الإطلاقية يجعل بناؤها النظري مغلقا وغير قابل للتطور والاستمرارية في الإنتاج والغريب أن الانغلاق الهوياتي يكون ملاذا وملجأ عندما تتغير معايير الانتماء وتتوتر آليات الإدماج والانصهار داخل الوطن الواحد، ففشل الإدماج المجتمعي يؤدي إلى التقوقع على الذات وصولا إلى البحث الأسطوري فيها. فمفهوم الوطنية مثلا في الوطن العربي تحول إلى انكفاء وانعزال وعداء للآخر فنحن لم نعرِّف أنفسنا لنكون جزءا من المنظومة العربية وحتى العالمية ولكن نعرِّف أنفسنا ضد هذه المنظومة، وعرفنا الحدود إلى درجة أصبحت سدود.

" لم تعد الهوية كينونة جامدة وجوهرا خالصا بل خليطا من التمازجات والتداخلات والتفاعلات الثقافية المركبة"[17]، أي أن الهوية لم تعد فعلا نهائيا.بل هي فعل مصحوب بالتجدد ومفتوح على أنواع الاختلاف والتعدد.

يصور إيليا أبو ماضي لنا مدى الإحساس بالدونية والتهميش الذي تتعرض له الهويات الثانوية من قبل الهويات الرئيسية والمآزق التي تقع فيها بسبب أزمات الهوية، وإذا نظرنا إلى تاريخ الفكر العربي المعاصر نجد أنه تتجاذبه مدرستان مدرسة الهوية ومدرسة النهضة. فهناك من يهمه النهوض بهذه المجتمعات، وهناك من هو مهووس بحماية الذات والانكفاءعليها. فما نحتاجه اليوم هو النهضة، وإذا كنا نبحث عن هوية فالهوية ليست واحدة، وإنما هي هويات متعددة، وهذه الهويات تعترف بأن الإنسان مركب ولا يمكن اختزاله إلى بعد واحد.كما لا توجد أوطان نقية عرقيا أو دينيا، والوحدة ليس بالضرورة أن تكون اندماجية، قد تكون تنسيقية (تنسيق مواقف)،وحدة إرادة ليس بالضرورة وحدة سياسية وقد أشار"مالك بن بني"إلى هذا عندما دعا إلى فكرة "كومنولت إسلامي " فهو يرى أن العالم الإسلامي هو عوالم، والتنسيق هو الأفضل كما يرى.

وحاليا أصبح على الأفراد والجماعات بفضل التغيرات والتحولات أن يعيدوا تعريف هوياتهم وأفضل سبيل لضمان الانسجام والتجانس هو الاعتراف بالهويات الثانوية، لأن طمس بعض الهويات يبقى بؤرة توتر قابلة للإنفجار في أي وقت، كما يقول إيليا أبو ماضي:

لا رخام أنا فأنحت تمثالا
ولا صخرة تكون بناء
لست أرضا فأرشف الماء
أو ماء فأروي الحدائق الغناء
لست ذرا تنافس الغادة الحسناء
فيه المليحة الحسناء

فالحجر الصغير ضاق درعا بما يتعرض له من طمس لهويته الثانوية وسط هوية الأحجار الكبيرة وهو يدلي بشكوى صارخة بعدم احتمال البناء على هذه الوضعية بسبب الإقصاء الهوياتي أو بسبب التعالي والتسامي على هويته بل بمحاولة فرض هوية عليه هي ليست هويته، فالحجر الصغير يريد أن يؤكد هويته، لكن دونما إصغاء "واليوم أصبحت الحاجة ملحة إلى إعادة النظر في مفهوم الهوية، فلم يعد من الممكن النظر إلى الهوية كمعطى قبلي حتمي ومكتمل يحدد الصيرورة الإنسانية. بل إنها منفتحة على مرجعيات وفضاءات متعددة"[18] والسياق الثقافي العربي كان ينطوي على نوع من النظرة الإقصائية والتعالي على بعض الهويات الفرعية، كما جاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ: إنما الأمم المذكورون في الناس أربع: العرب، والفرس، والهند، والروم، ومن سواهم همج وأشباه الهمج، ولكن في الثقافة الفارسية الصورة أكثر تعصبا فهم مثلا ينظرون إلى العرب على أنهم متوحشين ولا يحبونهم فهذا أبو نواس يرد في غزلياته وخمرياته كثيرا ما كان ينال من العرب، فهو يسخر منهم ومن وقوفهم على

الأطلال وبكائهم عليها ويعتبر أن البداوة ليس لها معنى عندما يقول:

عاش الشقي على رسم يسائله
وعشت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد
لا درك قل لي من بنو أسـد
ومن تميم ومن قيس ولفهما
ليس الأعاريب عند الله من أحد

فالهوية في العمق هي حصيلة التفاعل المستمر بين مكونات البيئتين الوطنية والكونية، وهي ذات طابع ديناميكي دائمة الحركة والإنتقال تتشكل وتتفكك ويعاد بناؤها حسب حاجة الفاعلين والاجتماعيين والإستراتيجيين لها .

8. فشل ونجاح إدارة الهويات :

إن أزمة الهوية ما هي إلا ابتكار من قبل النخب الحاكمة التي تعمل على إبراز مظاهر ثقافة الجماعة التي تمثلها للحفاظ على وجودها، وكسب امتيازات سياسية واقتصادية، وهذا يعني أن الهوية كظاهرة طبيعية ليست مصدرا للصراع، وإنما طريقة إدارتها هي السبب الرئيس في حدوث أزمة الهوية داخل المجتمعات، مما يحدث تصلبا وجمودا في التكوينات الاجتماعية القائمة فيسلب قدرتها على الانطلاق والتطور وفق نسق حضاري، وهذا "جورج قرم" في كتابه"جيوبوليتيكيا الأقليات في المشرق العربي" يذهب إلى التأكيد على أهمية التنوع الإجتماعي في المجتمعات العربية ويرى أن "المجتمع العصري يتألف من شرائح وفئات مختلفة ترتبط في منظومة حضرية معقدة وفاعلة من المصالح والأهداف والالتزامات والمسؤوليات التي تتباين درجات انسجامها وتناقضاتها"[19]. وإدارة تعدد الهويات في المجتمعات الشمولية غير الديموقراطية يتشكل في صيغة تراجيدية ومأساوية، تتمثل في الصراع والتعصب، أما التعدد الهوياتي في المجتمعات الديموقراطية فالصورة معكوسة، حيث يصبح عامل التعدد وحسن إدارته عامل تحفيز حضاري يحقق التواصل والتكامل بنيويا ووظيفيا."ويصبح اختلاف (الآخر) مألوفا ومقبولا بعد أن ظل غريبا ومريبا "[20].لأن التباين ضروري ومساهم في انفتاح الآخرين وتكاملهم. لكن وفق إدارة حكيمة للهويات بعيدة عن التحيز والتعصب والتمايز العرقي والطائفي.

"فالهوية المشتركة أو محاولة تحقيق الاندماج الاجتماعي ليس بالضرورة إزالة الانتماءات الفرعية بقدر ما تعني ضمان عدم التضارب بين الهوية المشتركة والهوية الفردية، وبناء على هذه المعادلة تصبح السلطة هي القادرة على منح الهوية المشتركة وذلك من خلال مؤسساتها المختلفة وتصبَح بذلك الهوية الفردية جزءًا من الهوية المشتركة"[21].

لم تتفاعل الهويات المتعددة دينية أو قومية أو لغوية في أحشاء حضارة كلاسيكية قديمة مثلما تفاعلت وتعايشت في أحشاء الحضارة العربية الإسلامية "وإن افتراض وجود هوية صلبة موحدة وناظمة لكل أفراد جماعة بشرية لم يعد ممكنا اليوم، والاختلافات والصراعات داخل الهوية الواحدة حادة وأحيانا تزيد على حدة الصراعات مع الهويات الأخرى"[22]، وهو ما جاء في قصيدة "الحجر الصغير":

لا أنا دمعة ولا أنا عين
لست خالا أو وجنة حمراء
حجر أغبر أنا وحقير
لا جمالا ،لا حكمة ، لا مضاء
فلأغادر هذا الوجود وأمضي
بسلام إني كرهت البقاء

يؤكد إيليا أبي ماضي في هذه الأبيات أن المجتمعات التي لا تدير هويتها المتعددة بشكل حكيم فهي لا تثمر انسجاما اجتماعيا ولا ثراء ثقافيا أو تسامحا دينيا أو امتزاجا عرقيا، كذلك المجتمعات التي تفشل في إدارة هوياتها المتعددة فهي تنتج التحيز الثقافي والعرقي والصور النمطية الاختزالية وضعف الثقة بين مكونات المجتمع. وإن حسن إدارة الهويات المتعددة هو الاعتراف بكل

الهويات وبوجودها وبشرعيتها، ومن أسوء ما تعانيه المجتمعات المعاصرة أن الإيديولوجيات السائدة فيها هي إيديولوجيات اختزالية تريد أن تختزل الإنسان في بعد واحد من أبعاده، أي أنت قومي فليست لك علاقة بالدين، أو أنت مسلم لا علاقة لك بالقومية، وكان الأجدر من ذلك الاعتراف بثراء الكائن الإنساني لأن كل إنسان يحمل هويات متعددة."فالعالم الحي هو عالم الاستقرار والحركة الدائمة، وعلينا أن نبدل جهودا كبيرة للتحرر من سجن ال"أنويه" والهوية النقية، للتعايش مع عالم معقد مملوء بالرهانات والتحديات"[23].

ولإدارة الهويات المتعددة لابد من إرساء قيمة العدل، لأن العدل قيمة لا تطالها النسبية، ولا تخضع للتكيفات الظرفية سواء كانت زمانية أو مكانية والعدل يكون مع الصديق ومع العدو ومع الكافر ومع المسلم، فهو لا تدخله النسبية، لأن اختلاف الهويات الدينية أو المذهبية لا يؤذي إلى الصراع إلا إذا شابها الظلم كأن يجبر على الأمازيغي مثلا أن يكون عربيا لأن الإحساس بالتهميش والإقصاء من قبل الهويات الفرعية يؤدي بها إلى التمرد والفلتان:

فلأغادر هذا الوجود وأمضي
بسلام إني كرهت البقاء
وهوى من مكانه وهو يشكو
الأرض والشهب والدجى والسماء
فتح الفجر جفنه ... فإذا
الطوفان يغشى المدينة البيضاء

وما نريد أن نقول من خلال هذا الاستطراد أن إدارة الهويات المتعددة يحتاج إلى التحرر من الصور النمطية لنكتشف الجانب الإنساني في الآخر وجوهره لأن الجوهر الإنساني هو جوهر واحد قبل أن تشوبه وتعتريه الأنانية والحسابات الضيقة وهناك أمما في العصر الحديث نجحت إلى حد بعيد في حسن إدارة هوياتها المتعددة كرواندا مثلا بعد أن عاشت الصراع الهوياتي بين قبيلتي "التوتسي والهوتو" ذهب ضحية هذا الصراع مئات الآلاف من الأشخاص وذلك بسبب قراءة المنظومة الرواندية قراءة عرقية بالرغم من أنه لم تكن قضية الأعراق مطروحة، بل كانت منظومة اجتماعية مقسمة مهنيا، لكن القراءة العرقية البلجيكية (الإستعمار) للمجتمع الرواندي وتوظيفها الإداري كانت قراءة ثقافية لمنظومة عملو على تأويلها تأويلا إثنيا، فالهوية" تعاني من حالة استيلاب حقيقية وذلك عندما تتعرض إلى تأثير نظام من العمليات الخارجية التي تأمل على إحداث تغيرات عميقة في جوهرها، ويترتب عند حدوث الاستيلاب ولادة الإحساس به"[24]، والذي حدث بعد الاستقلال في رواندا هو أن الروانديين قرؤوا القراءة البلجيكية واتخذوها كآلية وذلك بعد تراجع واندحار الذاكرة الجماعية والثقافة الشفوية والأُطر التقليدية التي كانت تفسر المنظومة، فأصبحت القراءة البلجيكية هي القراءة المتوفرة، فاستخدموها في صراعاتهم السياسية ووظفوها وبنو عليها هوياتهم، وهي هويات قاتلة كما يقول "أمين معلوف".

"فالتطبيع القسري يحدث تحت تأثير جماعة ضاغطة تهيمن على جماعة أخرى... وبالتالي فإن الإكراه المُلِح الذي يدفع الفرد إلى تحقيق خيارات مستحيلة يُحيي في الفرد إحساس الاستيلاب حيث يشعر بأنه سجين و مقهور وأن كل سلوك مهما يكن أمره يجعله يحس بإحساس المرارة ويغرس لديه مشاعر الكآبة"[25]. ولكن رواندا وجدت الحل في وضع حد لهذا الصراع في استبدال هوية القبيلتين بالهوية الوطنية، وكذا أمما أخرى كالهند فهي تحتوي على عشرات اللغات ومئات الأعراف والطوائف، وكندا وجنوب إفريقيا ، وبلجيكا و... وهذه الأمم لم تختزل شعبها في قومية واحدة، ولا جعلت لغتها الرسمية لغة واحدة، وإنما اعترفت بتعدد الهويات اللغوية، وتعدد الهويات القومية، وإيليا

أبي ماضي في قصيدته "الحجر الصغير" يؤكد أنه لا مجال للتعايش إلا بالتحرر من ثقافة الإكراه، والانتقال إلى ثقافة الإقناع وضمان الوحدة القائمة على التراضي الطوعي وليس على ثقافة الاختزال.

9. خاتمة:

تعد الهوية من المفاهيم التي يستعصى الإمساك بها أو تحديدها، وكلما أمسكنا بتعريف لها كلما أجبرتنا متغيرات وتبدلات العصر على إعادة التعريف من جديد، وعليه فمفهوم الهوية أضحى زئبقيا يصعب حصره، والهوية هي ذات مضمون ثقافي يسعى الفرد من خلال هذا المضمون أن يتميز به عن الآخرين ولكن هذا التميز عادة ما ينطلق من منصات التفضيل والتحيز معتمدة في ذلك على هيمنة القوة وتبدلاتها مما يؤدي إلى اختزال الآخر وإلى التعميم والتمثيلات الزائفة، واتخاذ مواقف خاطئة عن الآخر نتيجة الانطلاق من الأحكام المسبقة .

يقر معظم الباحثين في مجال الهوية بأنها سياق وعملية متواصلة وهي ليست نقطة ثابتة أو محددة ونحن دوما في طريقنا إليها، وهي تبنى ويعاد بناؤها وتتحول وتتغير بمرور الوقت، وتحدث تغيرات عميقة في السلوك البشري، وهي منفتحة على فضاءات ومرجعيات متعددة، ولا يمكن للهويات الرئيسية أن تتخلى عن أي مكون من المكونات الثانوية، وأفضل أسلوب للتعايش هو الاعتراف بهذه الهويات لأن التنوع الهوياتي ينظر له من باب الثراء والغنى.

والمجتمعات التي لا تحسن إدارة هوياتها المتعددة بشكل حكيم فهي لا تثمر انسجاما على جميع الأصعدة وتنتج التحيز الثقافي والعرقي، وضعف الثقة بين مكونات المجتمع، مما يؤدي إلى ظهور الإيديولوجيات في إدارة الشؤون المجتمعية فتختزل الإنسان في بعد واحد من أبعاده المختلفة والمتنوعة .

10. الهوامش والإحالات:

[1]- ابن منظور، لسان العرب، المجلد 15، بيروت، دار صادر، 1970، ص376.

[2]- أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة نبيل محسن، دار وِرد للنشر والتوزيع، دمشق،ط1، 1993، ص 14.

[3]- صوموائيل - ب- هتنكتون، من نحن – التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة حسام الدين خضور، دار الحصاد، دمشق، ط/ 2005، ص37.

[4]-غيث، محمد عاطف، علم الاجتماع الحضاري: مدخل نظري، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، 1973، ص 28.

[5]-هجيرة بوسكين، تمثيلات الأنا والآخر في رواية المرفوضون لإبراهيم سعدي – مجلة دراسات أدبية – دار الخلدونية، الجزائر، ع13، 2012، ص3.

[6]- فؤاد البكري، الهوية الثقافية العربية في ظل ثورة الإتصال والإعلام الجديد، في أبحاث المؤتمر الدولي، الإعلام الجديد، تكنولوجيا جديدة، لعالم جديد، المنامة، جامعة البحرين، 2009، ص379.

[7]- رشيد حمدوش، بناء الهوية عند الشباب الجزائري أو ميلاد الهويات الصاعدة ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر، الجزائر، ع12، 2013، ص35.

[8]- أمين معلوف، الهويات القاتلة، تر:نهلة بيضون، دار العربي، بيروت، لبنان ط3، 2015، ص51.

[9]- ستوارت هول، هويات قديمة وجديدة: إثنيات قديمة وجديدة، في أنطوني كينج (محرر)، الثقافة والعولمة والنظام العالمي، ترجمة: شهرت العالم وهالة فؤاد ومحمد يحيى،ط1، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة،سلسلة287، القاهرة،2001.

[10]- علي خليفة الكوراني، المواطنة والديموقراطية في البلدان العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان،2001، ص30.

[11]- رياض زكي قاسم، الهوية و قضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، تشرين الثاني /نوفمبر2013، ص154.

[12]- المرجع نفسه، ص155.

[13]- المرجع نفسه، ص169.

[14]- أحمد الحطاب، الصفات التي يجب أن تتصف بها التربية للاستجابة لمتطلبات المجتمع خلال القرن الواحد والعشرين، مكتب اليونسكو للتربية في البلاد العربية، بيروت،1989، ص14ـ15.

[15]- أليكس ميكسللي، الهوية، ص 153.

[16]-إيليا حريق، الثورة الإثنية والاندماج السياسي في الشرق الأوسط، بيروت، دار الساقي، ط1، 1998، ص283.

[17]- محمد سعودي، الهوية من الوحدة إلى التعدد، آفاق المستقبل، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، الإمارات ع7، 2016، ص83.

[18]-المرجع نفسه، ص 83.

[19]- جورج قرم، (جيوبوليتيكيا الأقليات في المشرق العربي)، دراسات عربية، بيروت، العدد11، 1994، ص 47.

[20]- قيس النووي، حول بُنى السلطة والثقافة والأزمة العربية، آفاق الديمقراطية، والتركيب الثقافي العربي، الفكر العربي، العدد85،ص38.

[21]- تعقيب علي الطراح على سعد الدين إبراهيم، التعصب والتحدي الجديد للتربية في الوطن العربي، ضمن الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الأطفال والتعصب والتربية، إحتمالات الإنهيار للثقافة العربية المعاصرة، الكتاب السنوي السادس1989،ص19-71.

[22]- المرجع نفسه ، ص85.

[23]- المرجع نفسه ، ص85.

[24]- أليكس ميكسللي، الهوية، تر: علي وظفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق،ط1، 1993، ص 155.

[25]- المرجع نفسه، ص155.

11. المصادر والمراجع:

1.المصادر:

- إيليا أبو ماضي، الديوان الشعري، دار العودة، بيروت، 1960.

2.المعاجم:

- إبن منظور، لسان العرب، المجلد 15، بيروت، دار صادر، 1970.

3.الكتب:

-أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة نبيل محسن، دار وِرد للنشر والتوزيع، دمشق،ط1، 1999.

-غيث، محمد عاطف، علم الاجتماع الحضاري: مدخل نظري، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، 1973.

- رفؤاد البكري، الهوية الثقافية العربية في ظل ثورة الإتصال والإعلام الجديد، في أبحاث المؤتمر الدولي، الإعلام الجديد، تكنولوجيا جديدة، لعالم جديد، المنامة، جامعة البحرين، 2009.

-علي خليفة الكوراني ، المواطنة والديموقراطية في البلدان العربية، مركز دراسات الوحدة العربية،لبنان،2001.

-أحمد الحطاب، الصفات التي يجب أن تتصف بها التربية للاستجابة لمتطلبات المجتمع خلال القرن الواحد والعشرين، مكتب اليونسكو للتربية في البلاد العربية، بيروت،1989.

-إيليا حريق، الثورة الإثنية والاندماج السياسي في الشرق الأوسط، بيروت، دار الساقي،ط1، 1998.

-تعقيب علي الطراح على سعد الدين إبراهيم، التعصب والتحدي الجديد للتربية في الوطن العربي، ضمن الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الأطفال والتعصب والتربية، إحتمالات الإنهيار للثقافة العربية المعاصرة، الكتاب السنوي السادس1989.
-أليكس ميكسللي، الهوية، تر:علي وظفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 1993.

4.الكتب المترجمة:

- أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة نبيل محسن، دار وِرد للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1999.
- صومائيل -ب- هتنكتون، من نحن – التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة حسام الدين خضور، دار الحصاد، دمشق، ط/ 2005.
- أمين معلوف، الهويات القاتلة، تر:نهلة بيضون، دار العربي، بيروت، لبنان ط3، 2015.
-تعقيب علي الطراح على سعد الدين إبراهيم، التعصب والتحدي الجديد للتربية في الوطن العربي، ضمن الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الأطفال والتعصب والتربية، إحتمالات الإنهيار للثقافة العربية المعاصرة، الكتاب السنوي السادس1989.
-أليكس ميكسللي، الهوية، تر:علي وظفة، دارالوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، ط1، 1993.

5.المقالات:

- هجيرة بوسكين، تمثيلات الأنا والآخر في رواية المرفوضون لإبراهيم سعدي – مجلة دراسات أدبية – دار الخلدونية، الجزائر، ع13، 2012.
- رشيد حمدوش، بناء الهوية عند الشباب الجزائري أو ميلاد الهويات الصاعدة، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، ع12، 2013.
- رياض زكي قاسم، الهوية و قضاياها في الوعي العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، تشرين الثاني /نوفمبر2013.
- محمد سعودي، الهوية من الوحدة إلى التعدد، آفاق المستقبل، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، الإمارات ع7، 2016.